

الفصل الثالث

أسطورة الشخصية

إن لم تكن العبادات الأولى القديمة للشعب العربي قد خلفت بذاتها أساطير وحكايات للتراث العربي ، فقد نفذ أديب الأسطورة العربي إلى هذا العالم الفسيح من باب آخر استطاع عن طريقه أن يحول جولات في دنيا الأساطير السحرية دون أن يعترضه معترض ودون أن يمس جوهر المنع الديني الذي فرضه وجود الإسلام كدين جمع حوله للقلوب وتألفها ونسخ كل ما عداه في أرض العرب . وتلك هي الأعمال التي دارت حول الفترة السابقة للإسلام والمهدة له . فالتناس بعبادتهم وأوثانهم وطقوسهم مادة طيبة لأديب الأسطورة ينسج منها ما يشاء من أعمال حول الشخصيات الهامة التي لعبت دوراً في الإسلام أو أثرت في مجريات الأحداث أثناء وبعد البعثة . . .

لقد استطاع أديب الأسطورة العربية أن ينسج أساطيره وحكاياته حول آل البيت وكذلك حول الأبطال العديدين الذين لمعوا في صدر الإسلام ، وكذلك استطاع أن يستغل حاسته الفنية في تأصيل وتعميق أدوار القبائل والبطون ذات القفل في دنيا الدين الجديد كقريش مثلاً . . . بل واستطاع أن يمس كذلك تواريخ الأمكنة ذات القداسة والخطر عند المسلمين كالكعبة ومكة كلها والمدينة وغيرها ، فحول بناء الكعبة وإقامة المدينة المنورة ، وحول قريش ورؤسائها وحول مكة وساكنيها من الأمم التي بادت والتي بقيت حملت لنا كتب التاريخ والأدب والأخبار والسير العديدة الوافر مما يمكن أن يسلك تحت أسم الحكايات أو الأساطير، وحول سدنة الكعبة ورجال قريش قبل الإسلام وأحلافهم وحروبهم

ورحلاتهم وحول رجال قريش من أقرباء النبي صلى الله عليه وسلم الأذنين نسج كاتب الأسطورة وأديبها العربي مادة وفيرة ضخمة .

ومن هذه المادة التي تبين تسلسل أديب الأسطورة العربي ، حكاية حفر بئر زمزم، ونحن نجدتها في أكثر من مصدر من مصادر التاريخ أو السير أو التفسير ولكن أحسنها سبكاً وصياغة ابن هشام في كتابه " السيرة النبوية " حيث يقول :
 " قال ابن إسحق : ثم ولي عبد المطلب بن هاشم السقاية والرفادة بعد عمه عبد المطلب ، فأقامها للناس ، وأقام لقومه ما كان أبأؤه يقيمون قبله لقومهم من أمرهم ، وشرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من أبائه ، وأحبه قومه وعظم خطره فيهم " .

ويأخذ ابن إسحق في سرد أسطورة حفر بئر زمزم فيقول : قال الحارث لابن

عبد المطلب : -

- ما بك يا أبة فلست كما اعتدت أن تكون كل صباح • فقال عبد المطلب:
- يا بني بي أمر غريب أجد له في نفسي وقعاً محيراً •••
- فأنا أبنك فأخبرني لعل لي من الرأي ما يعينك •••
- أعرف يا حارث صدق مشورتك ، ولكن عدني أن تكتم الأمر •••
- أفعل يا أبة فهات ما عندك •••
- لقد أمرت بحفر زمزم •••
- زمزم ••• وما زمزم يا أبي ؟ •••
- بئر أمرني من أتاني في المنام بحفرها •••
- بل أمس أخبرني باسمها ، أما هذا الذي أتاني فقد جئني في الفجر وقال لي :
- أحفر طيبة ••••
- قلت له ••• وما طيبة ؟

- قال أحفر بـرة
- قلت وما بـره ؟
- قال ابن إسحق : وسأل الحارث أباه قائلاً :
- ولم يجبك على سؤالك
- أبدا ، فقد ذهب عنى ، ثم جئنى فى اليوم التالى وأنا نائم فى مضجعى وقال :
- أحفر المذنونة
- قلت وما المذنونة ثم ذهب عنى وأنا أظن أن ما بى مسا من
- الشيطان سيذهب وحده كما جاء وحده حتى كان الأمس أن نمت حتى جاءنى
- قائلاً :
- أحفر زمـزم
- قلت وما زمـزم ؟
- قال لا تفرغ أبداً ولا يقل ماؤها أحفر زمزم ، أنك أن حفرتها لم تندم ،
- وهى تراث من أبيك الأعظم ، تسقى الحجيج الأعظم ، وهى بين الفرت
- والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم ، يملأ سواد جناحيه بياض ، عند قرية
- النمل أحفر زمزم تكون ميراً وعقداً محكم ، ليست كبعض ما قد تعلم . . .
- وما هى هذه العلامات يا أبـة
- أما الفرت والدم فلأن ماءها سيكون شفاء من الاسقام وطعاماً للجوعان .
- وما الغراب الأعصم ؟
- ورب الكعبة ما أدرى يا حارث لعلها إشارة إلى مكان الحفر
- وقرية النمل ؟

- ستكون زمزم عين مكة يا بنى يردھا الحجيج من كل جانب فيحملون إليها
البر والشعير • وغير ذلك ومكة لا تحرث ولا تزرع ••• وكذلك قرية
النمل لا تحرث ولا تبذر وتجلب الحبوب إلى قريتها من كل جانب •••
- ما أظن إلا أن هذا الذى أتاك قد أصدقك القول يا أبة ••• والرأى أن نبدأ
الحفر من الغد •••
- أذن أحمل معولك واتبعنى عند أول خيوط فجر الغد يا حارث ونرقب مكاناً
فيه غراب يتقة •••
- وفى الغد انطلق عبد المطلب وأبنة الحارث يبحثان عن البئر ••• حتى إذا
أتيا إلى مكان قال عبد المطلب :
- انظر يا حارث هذه الحجارة اللينة التى تغطى عين الماء قد وصلنا إليها .
- أنماهى يا أبة ، لقد وحق وصلنا إلى زمزم ••• وهنا يصيح عبد المطلب
مكبراً فيظهر له نفر من قريش ويناديه أحدهم قائلاً •••
- قد أدركت وحق اللات سؤالك يا عبد المطلب وبلغت البئر •••
- وماذا لكم فى الأمر •••
- يا عبد المطلب هذه بئر أبينا إسماعيل ••• وأن لنا فيها حقاً ، فأشركنا معك
فيها •••
- ما أنا بفاعل ••• أن هذا الأمر قد خصصت به دونكم ، وأعطيته من بينكم .
- فانصفنا ، فأنا غير تاركك حتى تخاصمك فيها •••
- أحقأ ••• ؟
- نعم ••• وأنا لفاعلون ••• فيقول الحارث •••
- أتجرؤ يا هذا ••• ويتدارك عبد المطلب الأمر فيخاطب الحارث •••

- رويدك يا حارث ، مالى من ولد غيرك ، وما أنت قادر على أن تمنعنى وتكف أذاهم عنى . . . فلا بد من قبول الخصومة . . . ولكنى أشهدك وأشهد البيت العتيق لئن ولد لى عشرة نفر ثم بلغوا معى حتى يمنعونى . . . لأنحرن أحدهم عند الكعبة . . .
- هذا نذر عظيم يا أبى . . .
- والموقف الذى اقفه الآن مضطراً مرغماً أمامهم أعظم وأجل . . . ثم يدور حوار بينه وبين ذلك نفر من قريش فيطلب منهم أن يجعلوا بينه وبينهم حكماً يختارونه هم . . .
- ويقول أحدهم . . .
- إذن فهى كاهنة بنى سعد هذيم . . . يا عبد المطلب . . .
- ويرد عبد المطلب قائلاً . . . نعم وأركب إليها فى نفر من أهلى وتركبون معى إليها . . . وتطول الرحلة ويشتد حر الطريق فيقول الحارث . . .
- يا أبة لقد فرغ ماؤنا وظمئنا وظمأ القوم معنا . . .
- لكأنى بنا من الهالكين . . .
- وما رأى يا أبة . . .
- نستسقى قريشاً عليها تسقينا ، اسرع براحتك خلفى لنحدثهم فى الأمر . . . ويصلان إلى القوم وقد وقفوا يستهدون ماء ركب عبد المطلب يصل لهم . . .
- يا قوم ، لقد نفذ ماؤنا وأوشك قومى على الهلاك فلو سقيتمونا مما معكم . . . ويقول أحدهم :
- لا وحق هبل يا عبد المطلب ما نعطيك من ماؤنا . . . ويقول آخر . . .
- نحن بمفازة ونحن نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم . . . ويقول عبد المطلب :

- أهذه كلمتكم ••• بشأنية الجواب الفصل •••
- ولا كلمة غيرها عندنا فعد إلى أهلك •••
- ويعود عبد المطلب إلى أهله يروى لهم قصته ما وقع له مع قريش حين نفذ
ماؤه ويستفسرهم في الأمر •••
- ماذا ترون الآن يا بني عبد مناف وقد رفضت قريش استساقانا ••• ويرد
الحارث •••
- ما رأينا إلا تبع رأيك يا أبي، فمرنا بما شئت ••• وهنا يدلي عبد المطلب
برأيه فيقول :
- " فأنى ارى أن يحفر كل منكم حفرتة لنفسه بما حكم الآن من القوة ، فكلمنا
مات رجل دفعه أصحابه في حفرتة ، ثم وراه ••• حتى يكون أخركم رجلاً
واحداً ••• فضيعة رجل واحد يموت بلا قبر يأوى جسده أيسر من ضيعة
ركبنا جميعاً ••• ويقول الحارث •••
- نعم ما أمرت يا أبة ••• وليحفر كل منا قبره بيده ••• هيا بنا •••
- وينتهى الجمع من الحفر ويقعد كل واحد فيهم أمام حفرتة وتطول جلستهم
فيقول الحارث لأبيه عبد المطلب :
- ها نحن قد حفر كل منا حفرتة بنفسه وقعد ينتظر الموت عطشاً أمامها وقريش
كلها تنظر إلينا ولا تحرك ساكنا ••• ويرد عبد المطلب :
- والله يا حارث أن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت ، لا نضرب في الأرض ، ولا
نبتغي لأنفسنا خلاصاً ••• لعجز ••• فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض
الطريق ••• ويسأله الحارث •••
- والرأى يا أبي ؟ فيجيب عبد المطلب •••
- ارتحلوا •••

- والكاهنة ؟ ويجيب القرشي :
- لا داعي للرحلة إليها فززم له لقد خلينا بينك وبينها
- ويمضى ابن إسحق في روايته فيقول : " ففقت زمزم على البئر التي كانت قبلها وانصرف الناس إليها لمكانها من المسجد الحرام ، ولفضلها على ما سواها من المياه ، ولأنها بئر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وافتخرت بما عبد مناف ، على قريش كلها وعلى سائر العرب^(١) .
- ودائماً ما ترى ابن هشام وابن إسحق يقولان في سياق الحكاية كلمة (فيما سمعنا) أو (هكذا سمعت) ليؤكد أن عنصر التأليف والخيال والقص قد دخل الحكاية وأنها في الحقيقة نسيج بارع قدمه أديب الأسطورة العربية ومن واقع العبادات والمعتقدات الوثنية ولكن هذه الأسطورة لا تستكمل سماتها ولا تكتمل لها ملامحها إلا بتعقب ما تم من أمر عبد المطلب وقسمه حين احس بعجزه عن مواجهة قريش .

ويرويها لنا ابن إسحق فيقول :

" وكان عبد المطلب بن هاشم - فيما يزعمون والله أعلم - قد نذر حين لقي من قريش ما لقي عند حفر زمزم ، لئن ولد له عشرة وعرف أنهم سيمنعونه ، جمعهم ، ثم أخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك ، فاطاعوه ، ثم ينبري أبنته الحارث فيسأل :

- ولكن كيف نصنع يا أبة ؟ فيجيب عبد المطلب :
- ليأخذ كل رجل منكم قدحاً ثم يكتب فيه اسمه ثم أتوني ؟ فيقول الحارث ؟
- نفعل جميعاً يا أبة ولكن ويستقر عبد المطلب : ولكن
- ماذا يا حارث ؟ فيجيب الحارث :

(١). السيرة النبوية .

- حتى عبد الله . . . فيقول عبد المطلب :
- نعم حتى عبد الله يا حارث . . حقاً هو أحبكم إلى ولو أخطأه القداح فقد أبقى والله ولكنه لا بد أن يدخل في القداح فهذا نذرى ولا مناص من الوفاء به
- ويذهب عبد المطلب بأولاده إلى صاحب القداح يطلب منه أن يضرب على هؤلاء الأولاد بقداحهم وأيهم خرج عليه القداح ذبحه وفاء لنذره ولا يابه عبد المطلب لصيحات المقدحين من قريش ويقول لصاحب القداح :
- أضرب القداح يا أبا العرب وسأدعو ربي عند هيل حتى تخبرني بجلية الأمر ولكن القداح تخرج على عبد الله أحب الأبناء إلى قلب عبد المطلب ويذعن الرجل ويقول مستسلماً :
- أنه أمر الإلهة أذن ، ولا مناص من الوفاء هات الشفرة يا حارث واتبعني يا عبد الله إلى اساق ونائلة ويتساءل الحارث ؟
- يتبعك يا ابة لم فيجب عبد المطلب :
- أذبحه عند قدمي اساف ونائلة فهكذا كان النذر وهكذا يكون الوفاء ويرتفع صوت واحد من الناس :
- بل ما هكذا يتم الأمر ابداً يا عبد الله . أتذبح أبنتك بيدك ، لا أبداً حتى تغدر فيه ويرتفع صوت آخر :
- لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بأبنته حتى يذبحه فما يفاد الناس على هذا ؟ ويتقدم رجل ثالث إلى عبد المطلب يقول له :
- والله لا تذبحه أبداً حتى تغدر فيه ، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه وهنا يتحرك الحارث راجياً أباه أن يسمع كلام القوم فيسأل الناس برأيهم .
- فماذا تقولون يا قوم ؟ وتأتيه الإجابة على لسان واحد منهم حيث يقول له :

- انطلق إلى الحجاز فأن فيها عرافة لها تابع ، فسألها ، ثم أن أمرتك بذبحه ذبحته وأن أمرتك بأمر لك فيه فرج قبلته . . . ويستريح عبد المطلب للرأى فيقول:
- أفعل ما ترون . . . وفي الغد ينطلق عبد المطلب وبنوه على العرافة في المدينة . . . ولكنهم يجدون العرافة قد ذهبت إلى خير فينطلقون وراءها . . . وفي خير يلتقى عبد المطلب بالعرافة ويعرض عليها الأمر كله ويسألها الرأى فتقول :
- ارجعوا عنى اليوم حتى يأتينى تابعى فاسأله . . .
- وينصرف عبد المطلب وقد وعد العرافة بالحضور في اليوم التالى ثم يقول لأولاده :
- أذهبوا أنتم إلى شأنكم وسأقصد إلى الجبل أدعو ربى حتى الغد . . . فأتون نذهب وإياكم إليها . . .
- وفي الغد كان عبد المطلب وبنوه عند العرافة ينتظرون ما تشير به . . . وفي هفة ينصت الجميع عندما تقول :
- الآن جاءنى الخبر . . . وفي هفة أشد يسأل الحارث . . .
- خيراً يا أم العرب . . . وتسال العرافة بعد فترة صمت طويلة :
- كم الدية فيكم ؟ . . . فيقول عبد المطلب
- عشر من الإبل . . . ثم تصمت . . . العرافة لحظات لتقول بعدها . . .
- ارجعوا إلى بلادكم ، ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشراً من الإبل ، ثم أضربوا عليها وعليه القداح ، فأن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى بكم ، وأن خرجت على الإبل فأنحروها فقد رضى بكم ونجا صاحبكم . . .

ويعود الجميع إلى مكة - لينفذوا ما أشارت به العرافة وتضرب القداح على

عبد الله وعلى عشر من الإبل فتخرج على عبد الله . . . فيقول الحارث :

• زيدوا عشراً من الإبل وأضرب القداح مرة أخرى يا صاحب
القداح . . .

• وبينما القداح تضرب يكون عبد المطلب عند هبل يصلى لله عز وجل
في عبد الله أعز ولده إليه وتخرج القداح على عبد الله مرة
أخرى . . . فيقول الحارث :

• أذن زيدوها عشراً ولتكن ثلاثين من الإبل وأضرب القداح . . .

• وفي تلك الأثناء يقترب رجل من عبد المطلب وهو يصلى عند هبل
ليقول له في إشفاق :

• حنانيك يا عبد المطلب اقتصد في دعائك فأن ربك يسمع لك . . .
ويرد عبد المطلب :

• وأني لادعوه أن يسمع لي وأن يرضى ، أما عرفت أن القداح يخرج
على عبد الله والإبل قد وصلت إلى الخمسين والله لا يرضى ولا يقبل
. . . ويطمئن الرجل عبد المطلب فيقول :

• بل سيقبل يا عبد المطلب فلا تراع . . .

• ولكن الإبل تصل إلى الستين وما زالت القداح تخرج على عبد الله
فيسأل صاحب القداح الحارث بن عبد المطلب .

• عبد الله مرة أخرى أتزيد الإبل يا حارث ؟ ويستجيب الحارث :

• إلى السبعين يا صاحب القداح واضرب قداحك حتى يرضى الله . .

• وتضرب القداح فتخرج على عبد الله فيقول الحارث :

• أذن فزيدوا إلى الثمانين . . . ويصيح رجل في دهشة :

- ثمأين من الإبل وعبد الله هذا كآير . . . ولكن الآارآ لا يلتفت على ما قاله ذلك الرجل ويأمر صأحب القدأح :
- أآرب القدأح يا صأحب القدأح . . .
- كل ذلك يآدآ وعبد المآلب عند هبل يصلى لله من أجل ولده عبد الله - ثم يقآرب منه صأحبه الذى رافقه فى صلواته يآدآه :
- لست أشك لحظة يا عبد المآلب أن ما نفعله اليوم أنما يآدآ آدآ فى مكة وفى قرىش كلها . . . ويستنكر عبد المآلب قول صأحبه ويرد عليه :
- وماذا أآدآ يا أآا قرىش ، نذراً أوفيه . . . ويقول الصأحب :
- لا بل ، دية آعلو بها ، فما علمنا من قبل أن أآداً آعل الدية إلا عشرأ من الإبل فالآن لا يدرى على أى آد ستصل . . . وبينما يتآاور الصأحبان وآذا بالآارآ يقبل عليهما بهآل ويصيح بأعلى صوته . . .
- يا أبة يا أبة . . . آرج القدأح على الإبل ونآا عبد الله . . .
- وآكون هذه البشارة برداً وسلاماً على قلب عبد المآلب فىقول للآارآ :
- نآا عبد الله . . . نعم البشارة يا آارآ . . . ويسأل رجل . . .
- على كم من الإبل وقف القدأح يا آارآ ؟ ويجب الآارآ . . .
- مئة من الإبل . . . ويقول الرجل لعبد المآلب . . .
- قد انتهى رضا ربك يا عبد المآلب وآدت الدية منذ اليوم مئة من الإبل . . . ولكن عبد المآلب يأبى إلا أن يزاد وآوقاً من رضا ربه . . . فىآلق صوته . . .

- لا حتى اضرب عليها ثلاث مرات ٠٠٠
- ويحاول الحارث أن يثنيه عن هذا الأمر ٠٠٠ ولكن عبد المطلب أعطى إلى صاحب القداح لا تلوى على شيء ٠٠٠ ويدور الضرب من جديد على عبد الله وعلى مائة من الإبل كما أراد عبد المطلب ٠٠٠ ثلاث مرات ٠٠٠ وفي كل مرة تخرج القداح على الإبل ٠٠٠ فيصيح صاحب القداح :

- أما الإبل ثلاث مرات يا عبد المطلب لقد رضى هبل ولا شك ٠٠٠ فيطلق عبد المطلب فانحروها كلها واتركوها لا يصدعها إنسان ولا سبع ٠٠٠

ويقول ابن هشام بصدده هذه الرواية :

" وبين أضعاف هذا الحديث رجز لم يصح عندنا عن أحد من أهل العلم بالشعر " (١) .

هذه الحكاية بحوارها ونقلاتها وعقدتها الدرامية ، واختلاق الواقع فيها بالوهم ودخول الحلم معها مدخل الحقيقة ، وارتباطها بالطقوس الوثنية والعادات القبلية المتأصلة ترسم في تفاصيلها وترديدها طبيعة عمل الأديب العربي في استخلاص ما استطاعه من دنيا الأساطير الحافلة ليضيفه مع حدث من أحداث التاريخ القريب من الإسلام والمرتبطة به ارتباطاً وثيقاً وليجد في حمى هذا الارتباط مجالاً واسعاً لأعمال خياله وحياء العمل القولي المرتبط ارتباطاً عضوياً بالطقوس والاحتفالات القديمة قدم الدين القديم .

(١) المسيرة النبوية .

ومن هذا المدخل ولج أكثر من أديب من أدباء الأسطورة العربية متناولاً
الأمكان ذات الطابع الهام كزمزم والكعبة ومكة والشخصيات ذات الثقل الهام
كعبد المطلب وعبد الله وغيرهما

وكل هؤلاء الأشخاص وكل هذه الأماكن أوجدت المكان الفسيح للعمل
الأسطوري وأن كان ابن هشام يتحرج كما يتحرج ابن إسحق فيؤكد أنه لا تأكيد
لديه إلا السماع والنقل فهذا لا ينفي دورهما في إثبات هذه الأعمال بل وفي
صياغتها أيضاً .

ومن هنا يذهب صاحب كتاب في الرواية العربية عصر التجميع إلى أن ابن
هشام هو أول من راد حقل القص العربي بمعنى العمل الروائي ، وأن اتجاهه كان
اتجهاً إلى الروائية قبل أن يكون اتجاهاً إلى التقريرية التاريخية ^(١) . ومن هنا أيضاً
كان اتجاهه إلى اعتبار أعمال ابن هشام في إطار العمل الروائي لا في إطار العمل
التاريخي المحقق المدروس

فقد ذهب الكثير من المؤرخين والمفسرين والدارسين إلى نكران كل ما جاء
في كتب السيرة والمغازي والأخبار مما يذهب هذا المذهب ويتجه هذا الاتجاه
باعتباره من الإسرائيليات المدسوسة على الإسلام بينما يرى صاحب كتاب في
الرواية العربية أن الأمر لم يكن فيه دس لأنه لم يقصد به الحقيقة التاريخية قدر
ما قصد فيه أتاح المتنفس لأديب الأسطورة العربي . . .

(١) في الرواية العربية للمؤلف .

فابن هشام هو مؤلف السيرة عن ابن إسحق ، وهو مؤلف التيجان عن وهب بن منبه وهو مؤلف أخبار ملوك اليمن عن عبيد بن شربة الجرهمي
 وغير هذا من أعمال فكأنه كرس حياته لتقديم هذه الأعمال في الإطار الذي يلانم الذوق الإسلامي والروح الإسلامية ولا يتعارض مع التقاليد الإسلامية أو مع النواهي الإسلامية التي تصد وتمنع كل ما له علاقة بالوثنيات وأهلها وتقاليدهم وعاداتهم

هذا المفهوم يكون ابن هشام قد حمى التراث العربي جهد أديب الأسطورة العربي وادخله في التاريخ الأدبي المحفوظ بما ملك من براعة وفهم وحذق في الصياغة والمواءمة فانتقاد ما هو قريب إلى أنف المسلمين ولا يتعارض مع إيمانهم ، واختيار مواطن الحذف ومواطن التشكيك ، كل هذا حدد جهد ابن هشام في إعادة الصياغة لكل هذه الكتب التي حفظت لأديب الأسطورة العربي جهده وعناؤه
